Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية

و

رسالتها إلى العالم

رسالة الفلسفة والأخلاق

٣

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية

و

رسالتها إلى العالم

رسالتا الفلسفة والاخلاق

893.713
Ar99
v.3

v.3

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة

١٩٥٤

21431M

المحتوى

صفحة

١ الفلسفة عندنا وعند غيرنا من الامم

٥٥ الاخلاق او فن ايجاد الحياة وابداعها

الفلسفة عندنا وعند غيرنا من الأمم

الفلسفة العربية : مدخلها رحماني، نهجها فني ، غايتها الذات انها نظرة مستوحاة من الحياة .

درج استعمال كلمة (فلسفة) منذ أن بنى وتبنى هذه الكلمة (فيثاغورس) شيخ الفلاسفة . بنيان هجين (فيلو - محب وصوفي - الحكمة) ألقى ظله على الفكر البشري خلال عصور مديدة فظهرت هجانته في ثنائية ١ - من يحب ٢ - وغاية صبوته : الحقيقة .

وكلمة (ميتافيزيك) مابعد الطبيعة - لا تختلف عن سابقتها الفلسفة بالنشأة والمصير . حتى ان تركيبها من ميتا - مابعد - وفيزيك - الطبيعة - قد زاد من التباين بين الطبيعة وحكمة وجودها .

- تباين تعالت به الغاية عن الادراك وعزت الحقيقة على العقل وأنى للعقل أن يستوعب مصدر كينونته ! انما شأنه تنسيق مظاهر الوجود وتنظيمها .

هكذا تعثر الفكر الأوربي بطابع هاتين الكلمتين الهجين وتردد في سيره نحو الحقيقة .

وأما الكلمة العربية فأنها تقي ذهن صاحبها من العثرات وتوفر عليه الجهد المبذول في توضيح المشبهات pseudo - Problème. وعلى سبيل المثال نورد لك بعضا من هذه الكلمات :

(١) فكلمة (فقه) ، التي اتخذها أجدادنا في العهود القديمة مقام الفلسفة تعني حسب اشتقاقها اللغوي ، تفتح النفس عن بنيانها مستضيئة بنور ذاتها ، تفتحاً يتخطى به الذهن حدود الثنائية متعالياً نحو وحدانية تحوي في عليائها درجات الصعود المؤدية اليها . وانما تعني كلمة (فقه) معناها هذا لاشتقاقها من فق ، فقفق ، وهو صوت غليان الماء ، الصوت الذي اشتقت منه هي وأخواتها : فنأ (الدملة) ، فقح (الكاب عينيه فتحهما) فقس (النقف من البيضة) ، فقر (تجوف) ، فقع .... الخ وهي كلمات تتضمن جميعها خيال الفقاقيع المتفتحة من داخلها .

وهكذا فان الحقيقة تتجلى في النفس تجلياً ، لا تدرك من الخارج ادراكا .

٢ - والعبارة التي عنى بها العرب عالم المثل أي موضوع (مابعد الطبيعة) هي (الملأ الأعلى) . وهي عبارة تدل على

مدلولها وتكشف بـ (الأعلى) عن الاتجاه الذي يظهر فيه بنيان الوجود أغنى فأغنى . وكأن العبقرية العربية اذ أدركت بالسماء رمزاً للنفس كانت تشير الى الشبه بين وجهي الحقيقة : الوجود والوجدان . فالنفس تتجلى بهائها لمن يسبر اغوارها : كما تكشف السماء عن آفاقها لمن يرتقي علياءها والشبه هذا بين السماء والملأ الأعلى يكمل إذا ما اتضحت المناسبة بين ذكاء (الشمس) وذكاء المشتقين من نفس المصدر .

« بدأ الشبه الذهن العربي بين تحولات الوجدان من الابهام قبيل اليقظة ، الى لوضوح فالتأجج بعد ما استكملت هذه اليقظة شروطها وبين الشمس التي حصلت من تكاثف السديم وتبلوره فسطع نورها ، فخص هـــذا الذهن بالذكاء النور المنبثق عن استجهام النفس تجلياتها . وأشار بكلمة ذكاء الى صورته (أعني الذكاء) المحسوسة : الشمس . وهو بذلك لخص عقيـــدة الاقدمين التي اتخذت الشمس رمزاً للاله من جهـة والفلسفة اليونانية الحديثة التي اتخذت الذكاء معنى للوجود من جهة أخرى . »

« فاذا كانت الموجودات تحوم حول الشمس مصدر انبثاقها فان الحالات النفسانية أيضاً تنزع الى الذكاء المنبثق نوراً عنها ،

فتصطفي النفس على شفق هذا النور حالاتها المختارة وتحققها فيتضح إذن لغز الوجود : كن فيكون .»[1]

٣ - وكلمتا (طبيعة) و (شيء) ينسجم مدلولهما مع (الفقه) و « الملأ الأعلى » من حيث المغزى فكلمة (طبيعة) المشتقة من طبع تفيد أن مدلولها هو خيال الحقيقة التي انطوت عليه نفوسنا . إنها صورة تتجلى الحقيقة بها تجلياً يتناسب وضوحه مع مدى عمق الحياة في الأنواع . وكلمة (شيء) المشتقة من (شاء) تفيد أن مدلولها صورة مشيئتنا عُكست الينا عن المكان مشخصة . وأما الوحدة في الطبيعة والاشياء فهي مفهوم قوامه مستعار من وحدانية بنياننا .

والآية : « كانت السماوات والأرض رتقاً ففتقناهما » اذعنت التصاق الحس المحسوس في تجربة الحياة الأولى ثم نجوم عالمي الأشياء والآيات متباينين بالتأمل ، تكون قد أفصحت عن وجهة نظر الأمة العربية ، تلك النظرة المتبلورة حدساً في الكلمات العربية ، وتكون قد كشفت أيضا عن الانسجام بين الجمهور والأعلام ، فكأن مايرتسم من معنى في الكلمات وماينجلي من رؤيا في ذهن النابغة هما حالتان لنفس الحقيقة : حالة إبهام وحالة شعور تام .

« ٢ » راجع كتابنا « العبقرية العربية في لسانها » ص :

واذا حصل الانسجام بين مايضع الجمهور من أصول وبين تأمل أعلام الأمة ، واذا أكمل النابغة بجهده الصرح الثقافي الذي شادته العامة ، فان ذلك دليل على كمون الغاية في الحياة منذ البداية . وشأن الفلسفة هو أن يحول الفرد ماأنشأت الحياة فيها الى صورة واضحة .

لكل أمة أصيلة وجهتها ووجهة الأمة العربية الحياة نفسها فمن الحياة استوحت نظرتها ، وبالحياة اقتدت في صبوتها ، حتى إن نظرتها الرحمانية المثالية هذه تظهر على مؤسساتها ومفاهيمها العليا ظهور نبرة الايقاع على الأنغام في الانشودة.

لقد تجلت الكائنات للذهن العربي على مثال الأحياء: تجلت له دائبة على الكشف عما انطوى فيها من فحوى ، بل منطوية على مثل أعلى يتعداها وهي تنزع اليه أفراداً وبالجملة . كأنما الطبيعة حسب هذا الذهن أنشودة، كل من موجوداتها محصلة ظروفه، ينعكس عليه رواء المجموع على درجات متفاوتة .

والذهن العربي اذ خص نظرته في الكائنات بهذه الحكمة (الصورة المرئية L'Homme Dieu) هي الغاية الكلية، أدرك أن كلا من الموجودات ذو صبوة، وغاية هذه الصبوة هي الاية التي تجسدت انسانا في النبي صاحب الرسالة . وكلمتا « رشيم » و « شيخوخة » توجزان حدس العربي في حدي نمو الاحياء فتشيران الى تلك الحقيقة . فكلمة « رشيم » تشير الى المصور باستقاقها من « رشم » بمعنى « رسم » . وكلمة شيخوخة تشير باشتقاقها من « شاخ ـ شاخ الزهر » أي تفتح الحياة عن كامل مكنوناتها . فكأن الشيخوخة حالة تكمن في الرشيم كمون

الانشودة في مصورالهامها . وعلى هذا فأن اللوح المحفوظ هو من العالم بمثابة المصور من عمر الأحياء وكلمة عمر مشتقة من العمران وهل العمر إلا سجل هذا المصير ؟

أو لم يتجل تاريخ العالم الذهن العربي على غرار الأحياء كل من مراحله قبة ترمز الى وثبة الحياة نحو المثل الأعلى ؟ أما محور القبة فهو النبي صاحب الرسالة . أما الناس فهم يتفاوتون في المراتب بحسب اقترابهم من امنية المرحلة التاريخية التي تجسدت في البطل : البراس الذي تنسج على شفقة الاجيال هوياتها متكاملة . إن المسيح إذ قال انا الطريق ، أنا الحياة ، أنا الحق أوجز نظرة الأمة العربية في هذا الشأن . ان من اقتدى بالبطل اهتدى ، ومن اهتدي تفتحت في نفسه ينابيع الحكمة ، ومن تفتحت في نفسه هذه الينابيع ارتقى حتى الاية بحيث يصبح مثلا أعلى متجسداً بشراً .

ان عبارتي « محمد أول خلق الله وآخر الرسل » « وفي البدء كان الكلمة » هما أيضا تشيران الى نفس الحقيقة . الا أن « الكلمة » قد التبست على اعلام اوربا ب « المفهوم » تارة و ب « اللفظة » تارة اخرى . حتى إنه ، إلى هذا الالتباس ، يرجع عبارة « غوته » المأثور : « قيل في البدء كان الكلمة . واما انا فأقول : في البدء

كان العمل » . وهو قول عنى به كبير شعراء المانيا أن الثقافة القديمة ذات طابع سحري تقوم على الاعتقاد بتأثير الكلمة في مصير الأشياء .

وأما الثقافة الحديثة فهي ذات طابع علمي تقوم على مبدأ الفعالية الكونية وتطورها .

قد يرجع الالتباس بين الآية والعبارة إلى الخطأ في ترجمة الاسم بالكلمة ، او إلى اتخاذ الرمز مقام المعنى . بيد أن العرب قد اشتقوا الاسم من سما يسمو سمواً فاتخذوا السماء رمزاً له . وكانوا يعنون به الآية المثلى . واذا هم اردفوا صفة الأعظم بالاسم فانهم قد ميزوا بذلك الاية المثلى من الحقائق الأخرى ، حتى كان الاسم في عقائد الشعوب السامية يدل على المعنى دلالة البوادر على الشعور في الهيجان وعبارة « محمد اول خلق الله وآخر الرسل تعني الاسم الاعظم أي الصورة المثلى المتجلية بشراً في كل من أصحاب الرسالة . هذه الصورة من حيث هي آية مثلى منزهة عن قيود الطبيعة . ولكن من حيث هي ظاهرة تاريخية تخضع لنظام عالم الظواهر أي عالم الشهود ، ومع ذلك فما السحر إذا هو لم يكن رمز الابداع ، ابداع المعنى للصورة في الفن والأخلاق ؟

إن التجربة الاولى في الحياة إن التبس فيها الحس بالمحسوس

فن انكشافها سرعان ما يؤدي الى اتجاهين متباينين : الطبيعة والوجدان . لكل من هذين الاتجاهين نهجه الخاص في الانكشاف: فاتجاه ينحدر فيه الذهن من المحسوس الى الاهتزازات المتضمنة فيه ، فالى اطاره المكان، كانحدار الذهن مثلا من النغم الى الهيكل الرياضي المنطوى في النغم . واتجاه يصعد فيه الذهن من الحس الى منظومة الاحساسات فالى الالهام مرتقياً على منحنيات الأنغام متدرجاً بصبوته نحو مصدر الالهام .

فالذهن ، اذن ، ينهج في الحالة الاولى نهج التحليل العلمي وفي الحالة الثانية النهج الفني . ولما كان الذهن العربي قد اتخذ التجربة في الحياة مدخلا لكل معرفة ، وساير الشؤون الانسانية في صبوتها نحو المثل الأعلى ، فانه سلك سبيل الصعود ، السبيل الذي هدت اليه الحياة و كشفت به عن مراتبها المتفاوتة بالبهاء .

وبينما كان الذهن العربي يتخذ رائده المثل الأعلى كان العقل الاوربي يميل الى الطبيعة صورة الملا المستفاضة ، متدرجاً في منعرجاتها مسايراً للحوادث في انتشارها ، متأرجحاً بين الاسباب في ظرفي المكان والزمان ، متردداً بين العلة والغاية .

ولكن اذا بنى العقل الاوربي بتحليله المحسوس الطبيعة هيكلاً ذهنيا قوامه المناسبات الرياضية فانه يفك بهذا التحليل

أواصر موضوعه ويحول تلوناته الى أوليات يقف عند ردها [1] الانسان ، ولما اتخذ هذا الذهن الهيكل الرياضي المؤلف حلقاته من التباس البدي بظرفه ، بذاته ولذاته ، اتجه نحو العينية identite في المعرفة ونحو العطالة inertie في الوجود ، فانتهى به المطاف إلى وحدة كونية غير متناهية تحمل التناقض في كيانها. وهل يستقر العقل على التناقض ؟ أم هل يتخلى المعنى عن معاودة الانسان وعن دعوته الى التأمل في الكمال كصورة ذهنية أو كصبوة مثالية ؟

تنشىء النفس من شتات تجلياتها صورة تدرج فيها الطبيعة والموجودات حتى قاعدة كيانها الجسد . تنشىء الصورة هذه بترددها بين قطبي انكشافها « أنا » و « الأنام » واذا ما أتت الصورة محكمة ذات فسحة انجلت مكنونات الحياة بينة ذات غنى وليس القلق في النفس سوى الشعور الحاصل من تخلف الصورة عن معناها بالتقصير أو الازورار أي أنه قلق نمو أو قلق بشاعة .

إن الذهن العربي قد استحدث كلمة « شيء » من شاء مشيراً إلى أن الاشياء ذات بنيان خاص بنا يفتقر وجودها إلى حقيقتنا. أي أنها ليست بذاتها بل بعلاقتها بنا يتبع ترتيبها الميول والغرائز

---

(١) الرديف : المأزق . impasse

مقومات كياننا . وان هذا الذهن قد اشتق كلمة «قيمة» من قام ، مشيراً الى أن نظام الحياة هو نظام «قيم» رتيب ، قاعدته تمس حدود تجلياتنا مسايرة تلازم الحوادث قاعدة كياننا. الا أن هذا النظام لا يلبث أن يتحرر من هذا التلازم ويرجعه القهقرى وذلك بنسبة ما يتحرر من الغرائز المتعلقة بقاعدة وجودنا في الطبيعة والمجتمع حتى انه ليتلقي عند غاية مرتقاه بالمثل الاعلى. انه نظام كل من مراتبه يفيض برواء خاص بمرتبة رفعته على الدرجات الوضيعة فيحول بهذا الفيض بنيان الحياة الى وحدانية حرة . وأما المكان والزمان فهما اطار هذا النظام ليس الا .

ان الذهن العربي باشتقاقه ، اسمي المكان والزمان من صيغة المصدر التي هي رمز وحدانية الجنس ليدل على ماهية هذين المفهومين وانه بتميزه بينهما بحركتي الفتحة والكسرة ـ الاولى عبارة الاندراج ، والثانية عبارة العودة الى ذات صاحبها ـ أشار الى نمطي التفتح في المكان والاستجمام بالزمان. وان هذا الذهن اذ أجملهما بصيغة الظرف المنطوية على المداد Rythme الحاصل من تصالب الامتداد والمدة أبان نقطة التقائهما كان النفس تكشف عن بنيانها بالمكان فتحقق بهذا الكشف مكنوناتها وجوداً. أو كأن نمط التفتح وتحقيق الامكانيات بالحوادث هما متلازمان ظهوراً .

ومع أن النفس تبني فرديتها من العناصر المتلقاة من خلال المكان وتحقق قرارتها تحققاً متناسباً مع مدار انكشافها فانها تكتشف آفاق الوجود المتعالية بتجاوب رحماني بين نظرتها المختارة وبين تجلياتها المنعكسة اليها عن البيئة . وبتحويل هذه التجليات من أشعة رحمانية الى آيات تتعدى بها حدود التلازم بين الشؤون الانسانية . وليس نهج الفن الا سبيل هذا الصعود ، السبيل الذي يزول به الافتراق وينقشع حجاب المكان . اذذاك تبدو وجهتا الحقيقة متآخذتين : الطبيعة و لوجدان .

وتمييزاً لذلك اشتق الذهن العربي «الوحدة» - التي هي في الرياضيات - من « الحد » . و « أنا » - التي هي في الشؤون الانسانية - من الصميم . أي أنه اشتق الاولى من المكان والثانية من الوجدان وليس اسم الاله (آنو Anou في الديانة البابلية) سوى شكل منحرف لهذه الكلمة . ولا يستبعد أن تكون الكلمة نفسها قد ظلت في بعض اللغات الهندية - الاوربية .

ومفهوم الوحدة في الرياضيات نفسه يكشف عن وحدانية ميتافيزيكية ملتبسة في المكان ، يكشف عن تباين الوحدانية والكثرة ، عن تباين حدس الوحدة مع التجربة . وبهذا الكشف نهتدي الى حكمة الافتراق بين الوجود والمعرفة . افتراق ينمو فيه

اتجاها الحقيقة متوازيين أبدا ، واذا اقترب هذا الاتجاهان حتى التماس في الرياضيات فان الاتحاد بينهما يبقى نقطة خيال فقط تمس به المعرفة الوجود كما يمس المستقيم منحني الدائرة .

وأما التباين بين الوحدة الكونية ووحدانية الاحياء فقد يرجع الى ظهور الاشياء والصور الذهنية بمظهر ذي فعالية مستقلة عن ارادتنا فان الاشياء يؤثر بعضها في بعض تاثيراً مباشراً فيخضع تفاعلها هذا لقوانين طبيعية معينة . والصورة الذهنية تتجاذب في الوجدان فتؤلف جمرات هجينة ، ولكن النفس مع هذا وذاك تستنطب عناصر الصورة وتوجهها من وجهة نظرها فتعبر بذلك عن الحدس بعبارة بديئة وتنفذهي في نسيج الطبيعة فتبدل مجرى الحوادث حسب مشيئتها . ولذا فان الانسان يبدو مزدوج الطبيعة : مثالياً لايخرج عن عالمه من حيث المعرفة وثنائي التكوين من حيث افتقاره الى الانام . وما اسطورة التثليث في الديانات السامية القديمة الا رمز هذه الحقيقة : ادراك مصدر الوجود من خلال مظاهره المتفرقة ، ادراكه وحدانية تحوي في عليائها وسائل الصعود اليها . هـــذا مما يجعل الذهنية العربية السامية من العقلية الاوربية بمثابة الهندسة المجسمة من الهندسة المستوية . ان الذهنية العربية هذه تضيف الى ثنائية الانتشار

في المكان مبدأ لرحمانية ، مبدأ الاتحاد من الصميم في المعنى .

والانسان اذا ظهر بمظهر مزدوج البنيان فذلك لان كلا من حالات الوجدان يتطور بين التشخيص والانبثاق ، حتى ان الحالة الوجدانية تتحول من الانبثاق الى تراث مكتسب باندراج قاعدتها نظاماً بديئا في كيان عدان الانسان كل من تجليات الوجود معنى وصورة ذات نظام معين ، وكل من حلقات هذا النظام ينزع مطلقاً الى التحقق ، الى الانتشار ، مما يجعل المحسوس منظومة أمدة (اهتزازات مستقلة عن الارادة) ومما يجعل أيضا الحاجات اشياء مشخصة في المكان .

الى تردد الذهن هذا بين الانبثاق والتراث يرجع السبب في الالتباس بين اتجاهي الفكر في الفلسفة ، بين الفقة والحكمة هذه ترجع الكائنات الى شروط معقولة بحيث أن مبدأ السببية يتحول الى حكمة هذا الظهور ، ويصبح العقل اذن واجب الوجود وكلمتا سبب وعقل يشيران الى هذه الحالة بأصولها في اللغة العربية وأما الفقة فهو ارتقاء الذهن من الشؤون الانسانية الى حكمة وجودها كآيات تعقلها النفس رحمنياً .

واذا كانت الحكمة تقوم على مبدأ عدم التناقض المبدأ الذي تتعين به هوية كل من الحوادث بحيث يثبت كيانها ثبوتا ذاتيا

فان مبدأ عدم التناقض نفسه لايصدق الا بنسبة ما ترجع الحوادث الى العينية ، لايصدق الا اذا طبق على الموجودات من حيث هي مندرجة في المكان مستنسخ بعضها عن بعض في الظرف لا من حيث هي ظاهرة للمعنى . واذا هي - أي الحكمة - تحشر الوجود في ظرفي المكان والزمان تجعل الوجود بهذا الحشر تاريخياً سرمدياً « سرى - مدى » . واذا هي تزعم التعادل بين الصورة والمعنى فانها تدخل التفرقة في صميم الكائنات بينما الوجود ذاته ذو بنيان رحماني مثالي قوامه المشاركة وأما محاولة بناء الاحياء والاشياء بناء رياضياً فهي محاولة مماثلة لبناء هياكل الاحياء من الجبس في المتاحف الاثرية .

× × ×

مثل الانسان من الحقيقة كمثل غطاس يغوص في اغوار البحر فينشىء على سطحه ركيزة من اللؤلؤ الذي يستخرجه منه فهو يرتفع أعلى فأعلى بينما يغوص أعمق فأعمق وان خلاصه ليتوقف على انسجام هذا البنيان ومدى ارتفاعه .

والنفس تلتزم في تشييد هذا البنيان مبدأين أحدهما سام، منه تنحدر القيم الانسانية ، والآخر أرضي ، به تتحدد - بحسب

ضرورة عالم الامكان - قاعدة هذا الانسجام القاعدة التي تلتبس فيها الحاجات بالقيم فتنتهي بحدود التوازن والنمو في البدن .

فاذا كان العلم قد استهدف تعيين المناسبات الرياضية التي انطوى عليها هذا التجلي (المحسوس في الاتجاه الآفاقي) فان الاخلاق تصبو الى الكشف عن العدل (نظام القيم) الذي تضمنته النفس الانسانية .

ان الاتصال بين النفس وبين مظاهر الطبيعة ومبدأ القيم يتم بتجاوب رحماني بينها وبين قطبي انكشافها الصورة والمعنى : الطبيعة والملأ الأعلى . انها تتصل بالكائنات عن طريق الحواس وبصدر كينونتها من الصميم وليست عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » في مطلع كل من صور القرآن الا مغزى لهذا الاتصال بين الاله والكائنات ان الكائنات من بارئها هي بمثابة الجنين من أمه تستمد منه النسغ والقوام .

ان النفس في درجات صعودها تستزيد من فسحة الاتصال بينها وبين حكمة وجودها بالاستناد الى خيال تنشئه من مظاهرها تشخص به ما انطوت عليه من مكنونات وتستجلي الآيات .

وكلمة صلاة ذات الأصل اللغوي المشترك مع الصلة تدل على أن وضع الجسد والنية التي يتلخص فيها هذا الوضع بهدان السبيل

الى انكشاف التجربة الرحمانية في الوجدان. وهل الجسد الا خيال متحقق. انما العبادة تنظيم الحياة تنظيما يؤدي الى الاتصال بين النفس وبين بارئها الاله. فاذا ماعقدت النفس النية على الخير تجلت لها أسرار عالم الغيب فازدانت بالايات كما تزدان السماء بالنجوم « لئن شكرتم لازيدنكم » « القرآن الكريم ». «من له يعطى ويزاد. ومن ليس له يؤخذ منه » « المسيح » فمثل العلاقة بين النفس والعناية كمثل العلاقة بين الحرش والغيم، فالحرش يجذب الغيم اليه والغيم يمد الحرش بالغيث فيحول اذن كوامن الحياة في الاشجار الى ازهار وصفة «الرحيم» تدل على رسوخ الاتصال بين الانسان والاله دلالة يتميز بهـــا البشر عن العجم ذات المنظومان المغلقة.

ربما كان المظهر الأول للاتصالى الرحماني: المظهر الذي مهد للحياة سبيل الارتقاء من الطبيعة الى الانسانية هو الحب. في الحب يتبادل الرجل والمرأة النظرات والخطرات فتنمو من تبادلها الحياة وقد ينتهي هذا التبادل بوحدانية عليا ترمز اليها الاية « وجعلناكم من نفس واحدة وخلقنا منها زوجها » وأما الشبهة في الحب وتردد المتحابين بين الرجاء والخيبة فليس الا وسيلة تتفتح بها قرارة الحياة عن المعنى المشترك بين الرجل والمرأة.

هناك مظهر آخر الاتصال الرحماني بين « الانا و« الانام » ألا وهو الفن ، في الفن تتجاوب نفس المتفرج مع التحفة الفنية. يتجاوب الذهن مع الصورة الماثلة فيه . فيتفتح الوجدان عن معنى أعمق فأعمق . والتجاوب هنـــا يقوم على مداد مشترك Ryltme Commun بين النفس وبين موضوع تأملها . مداد يرتفع على ايقاعه الذهن منتقلا من ثنائية المعرفة وغرضها وما يتفرع عن ذلك من تشتت وتفرقة الى بنيان مشترك بين « الانا» و «الانام » . انه الى سهولة التجاوب هذا يرجع التفاهم بين ذوي القربى وبصورة خاصة بين الام وأولادها فكأن المشاكلة في منظومة الحياة البيانية تجعل الحجاب بين النفوس شفافاً . وترجع الى نفس المبدأ الفراسة أيضاً . ان الاسارير المرتسمة على المحيا تبعث في ذهن من تجاوب وأياها النزعات التي تبلورت فيها والنيات التي تجســـدت ، مثلهـــا كمثل البوادر في الهيجان Expressions d' émotion اذ تدعو الى انبعاث المشار من الوجدان .

وأما طريقة الاتصال الرحماني بين النفس وبين قطبي انكشافها فتتم على الصورة الاتية ، كل من التجليات تبدو اما مشخصة واما في حالة انبثاق جسما يكون الانتباه متجهاً نحو الوجدان

أو نحو الآفاق . على أن يدرك منبعثاً من الصميم سرعان ما ينعكس خيالا على المكان. والذهن يستخلص من الخيال ماهية اطارها عادة مسجلة في الدماغ . وهو اذا ما دعته الحاجة الى بعث الآية أو الى التحقق من صدق الواقع على شفق الحقيقة يلجأ الى هذا المفهوم المسجل عادة في الدماغ . ان مثل النفس من تجلياتها كمثل الحامل من مهجة كبدها تجعل ما ينبثق عنها غرضاً لتأملها تأملا يتيسر به لها الاتصال الرحماني مع مصدر كيانها . ومثل المنظومة البيانية وهي واقعة بين الآية والعادة كمثل الطلع الذي جذوره في الارض وزهوته في اتجاه الشمس حتى اذا ما تحولت الامنية الى سجية وتفصل ما انطوت عليه هذه الامنية بالعادات أصبحت النفس ذات تصرف في مصيره . ليس ثمة انفصال مكاني بين النفس والملأ الأعلى . فاذا استشف الذهن الآية وألم بشروط ماهيته تجلت هي ذاتها ببهائها كأن الذهن قد ألم بشروط ماهية الشمس لدى ظهور شعاعها فاستحال الشعاع بهذا الالمام كوكباً ساطعاً .

ولئن كانت النفس تستند على المنظومة البيانية في استجلاء لآية فقد أنشأت الحياة الدماغ طنانة تتجاوب بها رحمانياً مع الانام ، تتجاوب بها مع المنظومات الاهتزازية . وبصورة متناسبة

مع أداة الاتصال هذه غنى بالجرس .

بنت الحياة العدان من تصالب الزمان مع المكان : المدة مع الامتداد . بنته وحدة حياتية تنشر عليه فحواها انتشار الالهام على الانغام في الانشودة وانشأت بعدئذ من الصور والرموز خيالاً تتصل به مع الملأ الأعلى على مقياس أوسع فأوسع وان شأن الدماغ هو أن يسجل المناسبات بين « الانا » و « الانام » . مثله بذلك كمثل قاموس تتحول كلماته لدى الوعي الى معارف . والمناسبات المسجلة بين الدماغ والنفس كالاحياء اذ هي بين الارض والشمس انها لمن الدماغ تقتبس القدرة التي بها تتحقق . ومن النفس تستمد الزكوة التي بها تزهو .

ان المداد وان كان وسيلة الاتصال بين « الانا » و « الانام » الا أن الآية يسبقها طيفها الى ساحة الشعور ، والذهن اذا ما تمثل هذا الطيف مستوفياً شروط ماهيته حوله من أمنية تتراءى له الى خيال تتدرج قاعدته في بنية الجسد هكذا يتحول العرف من آراء طافية في البيئة الاجتماعية الى حقائق منبعثة من الوجدان وبهذا التحول ينتقل الناس من عهد الناموس الى عهد روح القدس .

ولما كانت بنية الانسان تتألف من أشياء وأحياء ورموزاً ن

الاتصال بها قد أصبح على صور مختلفة . فأما الاشياء فتدرك بالجملة وتتعين حدودها بالمصلحة وتقترب من التعبير عن الاحتياج الذي دعا الى انشائها على درجات متفاوتة وقد تصبح هي أيضاً مبعثاً للمعاني بالمجاز وذلك بالنظر للشبه بالمشاعر بين الاحتياج وما انطوت عليه النفس من فحوى وأما الاحياء فتعرف بتجاوب رحماني بينها وبين من يودها كما بينا ذلك فيما تقدم .

وأما الرموز فتفهم بفقه معانيها انها شؤون انسانية قد تبلورت فيما في البيئة يقوم وجودها بوعينا وكيانها مستمد من كينونتنا الا أنها مع ذلك تبعث من خلال الاشارة الحدس الذين عبرت عنها من وجهة نظر معينة فتهدي ذهن من يعيها الى الآية التي هي حكمة وجودها كما تهدي البوادر الى الشعور في الهيجان .

ونهج استحالة الرمز الى آية يتم على الصورة الآتية : يتفتح الذهن عن المعنى بتردده بين الحدس والاشارة تردداً ينجم عنه في الوجدان شعور مبهم بالغاية التي تعكس الآية أمنية من جهة والتي تحدث توتراً وحركة من جهة ثانية . وليس القلق الذي يحمل المصلح على الدأب في تحقيق ما ينشده الا الميل الحاصل من انكشاف التجربة الرحمانية في الوجدان . ان النفس تبدأ بتحقيق أمانيها خيالا بداية المعمار بانشاء عمارته مصوراً ولكن عناصر

الخيال هنا هي طيف الآية ليست التجربة الرحمانية معرفة تأملية فحسب بل هي معرفة مبدعة وذات صبوة الى الملأ الأعلى معـــاً . انها تبدع مصوراً اذا نظام بدي، أي ذا نزعة الى التحقق . وتحققه يتم باستقطاب القدرة المختزنة في الدماغ . مثله بذلك كمثل الحياة في الأحياء .

ينمو مصور الآية بصدق العبارة . واذا ماجاءت العبارة صادقة تلألأ الذكاء فبعثت على شفقه الذكريات عناصر الخيال وتم اصطفاء الاوفق من بين هذه العنـــاصر وفي كل الاحوال يبقى الذهن على الاتصال الرحماني بينه وبين الالهام وبينه وبين عناصر الخيال . والنفس تستجلي مراميها بالاقبال عليها . ولكن اذا ماهي أعرضت عنها جعلتها مبهمة ضامرة . وكذلك شأنها في التأثير على البوادر عند مطلعها في الهيجان .

ولما كانت التجربة الرحمانية تحمل نور هدايتها ويسبق فيها الطيف الآية شفقاً ، ولما كانت التجارب الرحمانية تتفاوت بالعمق كان صاحب هذه التجارب الرحمانية تتفاوت بالعمق كان صاحب هذه التجارب يهتدي بالرواء الخاص بمرتبة كل منها . وهو أي صاحب التجربة اذا ما تسامى في هذا المضمار تجلت له

روائع فنه متميزة بالبهاء والجمال . واشتدت عنده وضاءة الذكاء واحلولت والا لما كان للمعرفة من معنى .

ان الحالات النفسانية تتكيف بتساميها وبتحررفيهـا بهذا التسامي المعنى من الصورة تحرر «النقف» من قشرة البيضة . وعندئذ تصبح النفس عبقرية ذات تصرف في حالاتها وذات تفنن في وسائل التعبير عن الهامها (ليس بالخبز وحده يعيش ابن انسان بل بالحقيقة أيضاً المسيح)

فاذا كانت النفس تجيب بشعور بدي، على كل تلازم مستحدث بين الاشياء فان معناهـا لا يتحقق الا عندما تشرع في ادارة أحوالها بحيث تستأنف الابداع والحياة الاقرب من كمالها هي التي تتجلى عن شعور بدي، خاص بوحدانيتهـا، عن شعور يتناسب بهاؤه مع مرتبة رفعتها .

ولما كانت مراتب الدنيا تقصر عن غاية مرتقاها فقد استعانت الحياة بالمدة «لزمان» لكي تعوض بهـا عن تقصير الامتداد «المكان» بالتعبير عن البدي، من فحواها فكأنما النفس اذن عازف ينشر الهامه على الانغام معبراً عن مشاعر عز أداؤها البدي، عن البيان ليست الآيات وحدها ذات مصور بل لكل حـالة نفسانية صورتها الا أن الاختلاف بينها يرجع الى أن الآراء المجنحة تبقى

دون قاعدة أصيلة في الجملة العصبية مثلها كمثل الخوارق ذات البنيان المتنافر من الاحياء. وأما مصور الآية فن عبارته ترتسم منظومة متلازمة متنامة . وفي كل الاحوال تبقى تجليات النفس بين المعنى والصورة ، تستمد من المعنى وحدانيتها وتقتبس من الصورة عناصر تحققها . وبهذا الاقتباس تصبح المفاهيم عادات راسخة خاضعة للارادة .

ولكن اذا التبس البديء بما هو مستصلح عليه حسب الغاية تعثرت الارادة في انشاء العبارة صرفاً عن الدخل عليها وضل الذهن عن ادراك الفرق بين التفكير بالمصمم والتفكير بالتداعي بين وحدة تعينت حدود وحدانيتها منذ البداية كوحدانية عضو من أعضاء الجسد ، وبين وحدة تعينت حدود وحدتها بالغرض كوحدة الاداة في الآلة . فألى هذا الالتباس ترجع الصعوبة في تمييز الشيء المصطلح من الشيء الذي يرمز الى الميل . ان الصعوبة هذه في التمييز لتزداد بنسبة ما يقترب الفطري من الغرائز الاولية في بنيان الجسد .

الانواع في سلسلة الاحياء ترمز الى مراتب المعرفة الرحمانية فالبدائية منها تلتبس مع بيئتها وتخضع لأراجيفها بينما الراقية منها تستقل عن البيئة بمصيرها استقلالاً متناسباً مع رفعة مرتبتها .

كذلك الحالات النفسانية تتراوح بين النداعي والانبثاق ترق بخضوعها لنمط النداعي حتى تلتبس بالعبارة ، وترتقي بتفاوت موضوعها رفعة عن مبدأ التلازم بين الاشياء. ترتقي بانتقال موضوعها من الاشياء الى الرحمة الى المؤسسات الاجتماعية حتى اذا ما توجت المعرفة بالفلسفة فقهت النفس اذن معنى الموجودات.

ان النفس ذات همة . وهي من حالاتها كالشمس التي توقظ الاحياء من رقادها . تبعث النفس بماضيها وتحول أطواره من خمور الى حالة وجدان. ان الماضي يكمن كموناً في الحاضر ومع ذلك يظل كل من صفحاته ذا نزعة الى الظهور في ساحة الشعور نزعة تشتد بنسبة ما يكون التلاؤم بين الذكرى وبين وضع الجسد وبينها وبين عناية الارادة والذكريات ، وهي تحت الشعور في الضمير ، أشبه بحمام محصور في غرفة ليس لها الا نافذة واحدة نحو الضوء فكل منها يشرئب بمنقاره الى الشمس مبعث انتعاشه ولكن لا يظهر من بينها الا التي مسها شعاع الشمس مساً .

ان وسيلة بعث الذكريات واصطفائها هو التأثير الرحماني في اطار الذكرى المسجلة عادة في الدماغ ، والاستجابة الى الاتصال الرحماني هي التجلي اولا وتشخيص ما تجلى ثانياً . واذا استندت النفس في مراتب صعودها على الرموز التي يتم تأليفها من

الاحساسات والذكريات فان شروط الاتصال بينها وبين حالاتها يتم بادراك المعنى من خلال الصورة .

هكذا تتصالب الصورة مع لمعنى في الذهن فتبدو من تصالبها الاشياء ذات معالم في الطبيعة وهكذا تتدرج المعقولات صيغاً ذات مستوى واحد في الدماغ . بينما المعاني تظهر ذات نظام رتيب في الوجدان . ان العادات وهي صيغ المفاهيم من القيم (من قام) بمثابة الزنكوغراف من الاجسام ذات الابعاد الثلاثة .

ولئن آثرت الحياة الرؤيا على غيرها من الاحساسات في انشاء الصورة لمجزية التي بها تتشخص الحقائق المنبعثة فقد استلزم ذلك ما لهذه الحاسة من وضوح وتلون دقيق . ولئن تخطت النفس حدود العادات التي تتجسد فيها الافكار الى انشائها مكاناً متجانساً ترجع اليه حدود المراتب حتى يصبح السوي .

égalité معادلا للرتيب فانها تجعل بهذا التحويل مصيرها طوع مشيئتها بحيث تبدع بنيانها عدانا أعمق فأعمق .

فاذا كان العلم يستخلص من الطبيعة بنياناً رياضياً تتدرج فيه الكائنات اندراج الذكريات في صيغ مسجلة في الدماغ فان الفلسفة تتخطى شروط الحوادث الى الاتصال المباشر بمصدر الموجودات اتصالا تلازم درجاته البداهة كما تلازم المشاعر الحالات النفسانية لدى انبثاقها

وبعد ما تقدم فانه ليس من العجب أن كانت آيات القرآن قد استهلت بالرحيم والرحمن : الصفتين اللتين تدلان على الاتصال بين التحول والاستقرار .

ينهج الذهن في معرفة الحقيقة أحد نهجين: إما ان يسلك سبيل الفكر فيفكك عناصر المفهوم مرجعاً الواقع الى حكمة وجوده كعلة تتقدم عليه أو كغاية تتأخر عنه ليربط بعدئذ المفاهيم بسلسلة من المبادىء المعقولة جاعلا بها البنيان العقلي معادلا للحقيقة . وكلمة فكر بنشأتها من «فك» تدل على هذا المنهج. وإما ان يتصل روحانياً بالكائنات اتصالا يفقه به معانيها لينشىء عن موضوع اتصالاته المفاهيم التي يلخصها بها حتى اذا ما انتظمت هذه المفاهيم متقاربة بوحدانية الاية التي هي مبعث وجود المفاهيم ذاتها أدرك غاية مرتقاه .

الى الاختلاف بين نمطي الذهن هذين في المعرفة يرجع الاختلاف بين الحكمة التي تؤول الحقائق بالمبادىء أي بشروط المعرفة العامة (أول من الاول) ، وبين الفقه الذي يستجلي الحقائق مكلة بالبداهة. فالحكمة والفقه هما متباينان بالبنيان تتجه الاولى نحو الكونية Obgectivité في اتجاه المناسبات بين الحوادث الطبيعية وبين الشؤون الانسانية . ويرقى الثاني نحو

المعنى مستعيناً بالمكتسبات العلمية وبالتجارب الرحمانية متخذاً النهج الفني في اقتحام درجات الصعود التي تؤدي الى غاية مرتقاها متخذاً النهج الذي يختصر به الذهن الزمان والمكان موفراً بهذا الاختصار على صاحبه الجهد والوقت في نيل مبتغاه .

ولكن الحكمة بارجاعها القيم الانسانية والكائنات وذات المراتب المتفاوتة الى أوليات عقلية تحول الوجود ذا القوام الرتيب الى نظام سوي : فهي اذن ترسم من الحقيقة الاطار فحسب . أما الحقيقة ذاتها فتبقى في علمائها لا تكشف عن بهائها الا لمن يصبو اليها صبوة تتناسب رفعتها مع عمق النية وكبر الهمة . بينما النهج الفني يفقد الوجود كمعنى ويكشف عنه نظاماً رتيباً ، فاذا مست قاعدة هذا النظام المناسبات الرياضية فان أوجه يبقى منطلقاً في صبوته نحو المثل الاعلى تتجلى مراتب هذا النظام لذي البصيرة متمايزة برواء خاص بمراتب رفعتها وبصور ذي جذور في الجملة العصبية العضلية .

ولئن تراءت الطبيعة للذهن الاوربي كنقطة خيال وانتهى الامر بهذا الذهن الى ردب الضرورة فانه قد انصرف الى تشخيص الحدس مستغرقاً في النظام المنطوية عليه الحالات المشخصة . وما أن حاول ان يدرك الوجود من خلال المكان صورة قوامها

النسبية : نسبية المكان والزمان في وحدانية الكون الوهمية ، حتى بدت له الحياة والطبيعة تاريخاً سرمدياً وما أن أرجع التحليل هيكل التجليات الى أعداد رياضية حتى رجع هو القهقرى الى ظل الحقيقة الملقى على المكان خيالا .

فاذا كان الذهن يفصل المفاهيم حتى يجعلها منظومة تشف منها الموجودات فان وحدانية هذه المنظومة وقوامها هما مستعاران من بنية الوجدان اذ ليس للمعقولات من وجود إلا بمقدار ما وضع فيها من تفسير وذلك مما يجعل كل محاولة ترمي الى ايجاد التعادل بين الوجود والصيغ الذهنية التي تحشر فيها الحوادث أمنية

أفلم تقدم لنا الحياة البدن أمثولة حية لا نسجام ذلكما النهجين فاذا هي اتجهت نحو الطبيعة تفرغ البدن عن احساسات متنوعة دقيقة واذا اتجهت نحو صميم كيانها تاعدانها أعمق فأعمق . وليست الانواع الحيوانية بتسلسلها إلا رمز هذا البنيان . ولدى التأمل في توزيع الحواس وفي نظام هذا التوزيع يتبين أن الحياة قد استوحت مهمتها من الفن اكثر مما هو من المنفعة .

وتغلق وجهتا المؤثر بالأثر ، فيلتبس الحس بالمحسوس بنسبة علاقة الاول ببنيان البدن . فتكشف هذه النسبة عن غاية الحياة من الوجود . اذ أن الاحساسات تبهم وتتضاءل رغم خطورتها .

والاعصاب المختصة بها تتناثر باقترابها من بنيان البدن. وهي أي الاحساسات بنسبة ماتستدق تلتبس بالألم، كأني بالحيـــاة قد تقصدت من ذلك ان تقي الانسان من الاستغراق في هذا الاتجاه استغراقاً قد يعوقه عن غايته الاصيلة لذلك اكتفت بتجهيزه، اجمالاً بشعور عـام، سواء أكان باتزان البدن فيحصل عنه السرور، أم بنموه فينتج عنه الفرح. بينما تفاوت أجهزة الحواس انتظاماً بنسبة نزعتها الى العالم الخارجي وتحررها من مشاعر البدن. والسمع والبصر يمثلان غاية هذا الاتجـاه ويكشفان عن صبوة الحياة الى الانام.

أليس ظهور الحيـاة على سديم المادة بمظهر ذي وحدانيـة عناصرها متلازمة متتامة بدليل على رسوخ النهج الفني في طبيعة الحياة. أولا تبدأ النفس نهجها بانشائها صوراً قوام تحولهـــا الاحساسات؟ واذا انشأ الانسان مفاهيم ذات أغراض عملية يجابه بها مشاكل البيئة فانه ينشيء أيضاً مفاهيم اخرى يرتقي بهـا نحو الآيات المشرقة وذلك بالاستناد الى حدس يستجلي وميضه بعبارة يجعل بها شروط الآية اجمالا يتحول به الوميض من شعاع الى كوكب. وإنما نهج الفن هو نهج هذا الانشاء.

يظهر الاختلاف بين المفاهيم العملية والمفاهيم الرحمانية في

اختلاف نزعتها الاولى تنزع الى وحدانية كونية والثانية الى وحدانية ذاتية تحمل اتجاه مصيرها اتجاهاً معيناً . ومع ما في الامر من اختلاف فان الكيان الذهني لكل منهما يبقى مقصراً عن أغراضه تقصيراً يظهر به الشعور بالتفاوت بين النفس وأملها بينها وبين انكشافها :الطبيعة والمعنى وأين للمفاهيم الرحمانية ان يستنفد تلونها ما لا آية من رواء بديء خاص بمرتبة رفعتهـــا ! وكذلك المفاهيم الكونية حتى ولو ضبطت بقوانين طبيعية فانها وان أرجعت القوانين بالقهقرى الى ان يلتبس المعقول بالوجود يبقى الذهن عند مفترق الامكانيات .

ولكن اذا كان المكان محل تميز الاشياء واذا كان الزمان مصير ما يعجز عنه المكان من شعور بدىء خاص بمرتبة الحياة فقد أصبح الجمع بين مبدأي المكان والزمان لزاماً في انشاء القيم التي تستعلي بها الايات في الوجدان ووظيفة هذا الجمع هي من شأن الفن ، ان الذهن يتفوق على حجاب المكان والزمان بالنهج الفني بعد ان يكون قد استعان بهذين المفهومين على تحقيق مراتب الموجودات .

هاك بعض ماور بهذا الصدد في كتابنـا (العبقرية العربية في لسانها) : «تتجلى الحقيقة للنفس وتتوضح لها منذ مـــا تتسع دائرة

اضاءة المصباح باقتراب هذه الدائرة من الناظر اليها وبينما يتحرك المصباح باتجاه الناظر فالحقيقة مستقرة وثابتة والنفس هي التي ترتقي اليها مستندة برقيها على الصور الحسية والافكار التي تجمل هذه الصور .

فالنفس ترتقي اذن نحو الحقيقة بالاستناد على المفهوم الذي أنشأته من الصور الحسية والافكار التي تجمل هذه الصور على درجات متفاوتة ، محتفظة بنسبة تلازمها وتعادل مدادها كما تكبر الصور الشمسية المستدقة على مقاييس مختلفة ، تلك الصور التي تكون مقتبسة من آفاق عالية فتعيد عند التكبير الى الاشياء المأخوذة عنها نسبة تلازمها الاصلي .

والنفس وان ارتقت الى الحقيقة فهي ليست منفصلة مطلق الانفصال عنها بل ان الحقيقة لهي من النفس بمثابة الجنين من أمه ...

فمصدر الانبثاق هو اذن نظرة رحمانية في بنيان الوجود وهذه اما بصيرة مستنيرة بنور ذاتها حيث المعرفة والوجود متآحدان فتسبق حينئذ تجلياتها وتوجهها واما انها حدس يلتبس فيه المعنى بالصورة وبتساندهما (المعنى والصورة) وبتجاوبهما يتحقق أي الصورة تستدعي المعنى الى الوضوح والمعنى يلقي شفقه

على اتجاهات الصور فيستقطبها وبها يتحقق ولكن القدر وهو تلازم الحوادث خارجية كانت أو داخلية يكون تياراً من التلازم المتدافع المظاهر فيغمر بنزعته المتدافعة هذه النظرة الرحمانية ويكسفها بوجه عن النفس كما تكسف الغيوم النجوم عن الرؤية ومع ذلك فقد تظل بعض الاشعة مطلة من خلال هذا الحجاب السديمي فيشرع الذهن حينئذ الى تشبيهها بمفهوم مقتبس الاطار من المكان وما الحياة المتجلية في هذا المفهوم الا ذكرى تلك النظرة يحتفظ بها كما تحتفظ القطعة الفنية بمشاعر الفنان مبدعها .

تلك النظرة الرحمانية في الوجود متحررة من علاقات الزمان والمكان ومن الصور التي ينطوي عليها هذان الظرفان.

× × ×

عندما اشتق الذهن العربي من نفس المصدر كامني العقيدة في النفس وانعقاد الحياة على الجنين في الرحم دل على أنه قد أدرك الشبه بين حدي تطور الاحياء ، بدت لهذا الذهن المعرفة الرحمانية من النفس هي وما يترتب عليها من واجبات بمثابة القوت من الجسد تتحقق العقيدة بالمعرفة المنطوية على العلم والعمل وينمو الجنين بالقدرة التي يقتبسها غذاء من الطبيعة . وكلمة نبوءة تشير بنشأتها اللغوية (نبأ ، نبع) الى سبر الاغوار بحيث تنكشف

الحقائق الخالدة فيصبح صاحبها النبي منارة تهتدي على شفقها الاجيال الى أمانيها . وكلمة رسالة بدل اشتقاقها اللغوي على أن الحقيقة التي تجلت في نفس النبي هي تجربة روحانية تحولت الى صورة مثلى تنبثق عنها الواجبات انبثاقاً ، واذن فمثل الرسول كمثل الفنان الا أنه فنان أنشودته المجتمع . ان الرسول يدأب على تنظيم أموره وأمور الاخرين بما اقتضته الحقيقة التي أشرقت من عليائها في نفسه فهدته سواء السبيل .

تصبو كافة النفوس الى النبوة صبوة متفاوتة وهي على العموم تتوجس هذه الولادة واذا رجت قدوم المخلص من الخارج فما هذه الا عيادة المعنى المستفاض لها . وم القلق المستحوذ عليها كما هي الحالة في كل ولادة الا كالنوء الذي يبشر بقرب الموسم . فمحاولات النبوة لم تفتأ تظهر ، وانما تختار العناية المصطفى لرسالتها .

فمثل النبي كمثل السيارة ، الارض التي تحمله ، اذ أنه يبدأ سديماً مشتاداً حميه بمقاومة القيم البالية توقيه منها حتى تتبلور نفسه عن قبة المرحلة التاريخية (معناها) . كما تتفتح الارض عن كوامن الحياة التي بها تزهو . فان تفتحت الحياة وازدهرت على طلعة الشمس مصدر انبثاقها فكذلك النفس بنيتها على الخير

«صدر انبثاقها تنجلي عن المعنى فتزهو بهـــذا التجلي»[1] . لقد اشار المسيح الى ما انطوت عليه العقيدة من ميل محتوم الى اصلاح الجماعة اذ قال لتلاميذه : أنتم لم تأتوا اليّ بل انا أتيت اليكم. إن المعرفة الرحمانية اذا ماتجلت في الوجدان قادت صاحبها الى حيث يصبح مرشداً للاخرين ومثالا حياً .

وكل من كلمتي «البداهة» في المعرفة الرحمانية و«الواجب» في العمل يدل على انسجام وجهة نظر العربي صاحبهامع ماتقدم في هذا الصدد ، تدل كلمة «بداهة» بنشأتها اللغوية من « بدّد » بمعنى (فرق) ويتفرع حدس هذه النشأة عن (بدأ، بدا ، بدع الخ ...) تدل على ان البداهة حالة ترافق المعنى لدى انبثاقه من فوق سلسلة الصور التي تخضع بتآليفها للعادة ، مثل البداهة بذلك كمثل الابداع. وتدل كلمة (واجب) بنشأتها من (أجوج) على ان الواجب حالة تنبثق من الاعماق من فوق سلسلة الصور والعادات . الا ان الواجب ذو وجهة عمليـة جذوره في الجملة العصبية كأمر محتم على الوجدان. مثله كمثل البوادر في الهيجان فالبديهيات والواجبات حسب هذا الحدس هي اذن من الواقع بمثابة الينبوع من مجراه تفقد رونقها بالتباسها الاراء الهجينة والعادات كما يتلون الماء بتربة مجراه .

---

(١) راجع كتابنا « العبقرية العربية في لسانها »

وكلمة وجد تشير بمصدريها الوجود والوجدان الى ان الصلة بين النزعة وغرضها هي صلة أصيلة اذ ان النزعة المنطوية عليها «وجد» تصبح وجوداً المنطوية عليها (وحد وجوداً) اذا ما اتجه الذهن نحو الغرض ، وتصبح هي وجدانا اذا ما انكشفت لذاتها معرفة . ويشير الوجد الى مدى التوافق بين وجهتي الحقيقة .

وكلمتا شخص وذات يتوجان مانعني من تحليل لهذه الكلمات ان كلمة شخص وهي من حيث النشأة مماثلة الكلمة Personne في اللغة الافرنجية تفيد معنى القناع ، كأن الذهن العربي اذ استحدث هذه الكلمة من شخص أدرك ان الحياة تتجلى بالتشخيص كاستجابة عضوية لنمو الجسد . والحالات الوجدانية في بدورها من قرارة النفس بمثابة عهد الناموس من عهد روح القدس يسبق منها الطيف الحقيقة . وأما كلمة (ذات) فتفيد باشتقاقها من اسم الاشارة (ذا) ان الوصف يقصر عن الماهية مما يوحي بالحكمة المأثورة «عنه تصدر الصفات لا بالصفات يوصف»

ولكن كيف يستحيل الانسان من شخص الى ذات ؟ أو كيف ينتقل من عهد الناموس ، حيث تمارس الاراء عرفا ، الى عهد روح القدس ، العهد الذي تتجلى فيه الايات علماً وعملا .

ان الاستحالة هذه تتم اذا استقطب الانسان معالم حياته فحولها بهذا الاستقطاب من آراء مبهمة غامضة الى آيات بينة تحويلا

يرتقي به الذهن من الشؤون الانسانية المستفاضة في البيئة كرموز الى الاية التي هي حكمة وجود الشؤون نفسها، متحرراً بذلك من حدود المكان والزمان .

ولما كان المجتمع متمماً للجسد وموضحاً لما يضمر فيه من نزعات أصبح الاتصال بين النفس وبين مبدأ انكشافها رحمانياً أي اصبح الاتصال بينها وبين جوها الانساني اتصالا يتحقق به ماينبثق عنه من واجبات. ان النبي اذ يصلح المجتمع يخلق نفسه فتبدو له اذن معالم حياته من الملأ الاعلى وحدانية حرة متعالية عن تلازم الحوادث وعن خضوع هذا التلازم للعلاقة السببية . وعندئذ تصبح النفس في المجتمع كنغمة تجاوبت فيها شقائقها الانغام فتعين بالنسبة لمعناها اتجاه المنظومة وعندئذ تستحيل هي الى فنان أنغام انشودته تجليات حياته المتنوعة المنسجمة. ومرتبتها تتعين بمدى الانسجام بين وجهات نظرها وبين أمنية النفوس المتجاوبة في وجهة النظر هذه .

ولكن هل نهجت الفلسفة اليونانية الاوربية هذا المنهج ؟ أم بقي العقل الاوربي عند حدود التأمل مقصراً عن ادراك الصلة بين الخير المستفيض والواجب بين المعرفة الرحمانية والاصلاح العام . ان النزعة الى الصورة قد ظهرت على المعنى عند

كل اعلام الحضارة اليونانية الاوربية من هراقليتس الى افلاطون فالى ديكارت . وهاك ماقاله (كانت) في هذا الصدد « لارجاء في أن يصبح الملوك فلاسفة ولا الفلاسفة ملوكا وما ينبغي أن يكون ذلك مأمولا ، لان ولاية السلطان من شأنها أن تفسد حكم العقل وأن تقضي على حريته قضاء لامرد له ».

فالفلسفة التي اصطلح عليها حتى الان هي اذن فلسفة تأملية تقوم على احكام يمليها العقل بغية جعل الذهن مطابقاً للحقيقة مما يجعل الفلسفة بهذا المعنى معادلة للحكمة الطبيعية في اللغة العربية.

ولكن الذهن يبقى في الحكم عند حدود المكان خاضعاً للنسبية اذ ان الموضوع والمحمول وهما ركنا الحكم يبقيان على اتصال وانفصال معاً ، ولما كان المحل الذي يتميز به أحدهما عن الاخر هو المكان فان بقاءهما متلازمين في وحدانيـــة الحدس يجعلهما في حدود النسبية ويبقى الذهن اذن في الفضاء قائماً على العلاقة مقتصراً على ظل الحقيقة .

فاذا كان الفكر الاوربي هندسي الطبع ينزع الى التحديد في الفلسفة فان ذا البصيرة لايلجأ الى الحس الا في حالة الشبهة الحالة التي تتقلص فيها الاشعة الرحمانيـة ، ان الذكاء مشابـه لاشعة (×) مما يجعل الحدود تتعين بصورة متناسبة مع شدة

الوضوح وتدل كلمة ايضاح باصلها اللغوي على ان النور يأتي من الداخل كما تشير كلمة نور ذاتها بنشأتها الانسانية الى ذلك. فالذكاء اذن يأتي بحسب الحدس العربي من ملاءمة الصورة المعنى لا من الخارج أي من انكشاف طيات الاشياء كما تضمنت ذلك كلمة (Explication) التي هي معادلة لكلمة « ايضاح » .

فالمحات المنبعثة عن تجليات النفس المتفتحة وفق طبيعتها تتحول بتساميها الى قبس تزول بنوره الفوارق كما لو اشتد نور الأشعة المطلة من النجوم وشفت به المسافات الفاصلة بينها فبدت السماء حينئذ وحدة نورانية . فهذا النور يكشف للنفس بنيانها فيبدو هذا البنيان مثلما تبدو الاشياء في القطب تحت شمس دائم ضياؤها . وبهذا النور أيضاً تستقطب الذكريات الضامرة فتتجاوب وتنشىء النفس منها عالمها وتلقيه على الكون طبيعة . فالعلم ينشىء هيكلها من تلازم الموجودات الاصيل (المناسبات الثابتة بين الحوادث) أي القوانين . والفن يحقق مراتبه المتسامية بخيال يصنعه من الصور الحسية .

وهذه المناسبات الثابتة تتحول بالصناعة الى قواعد عملية فيسيطر الانسان على القدر بالالة التي يبنيه عليها . اما في الفلسفة فانه يرتشف من ينبوع هذا التجلي .

واذا كانت العبقرية غاية تصبو اليها الحياة ، فالافراد ، بالرقي

اليها ، متخلفون لما يتطلبه هذا الرقي من همة وجهد : همة تحددها فسحة قطبي الوجود : الطبيعة وقرارة النفس ، وجهد يستدعيه اختيار السبيل التي ينشىء بها صورته في وجود تنزع مظاهره كافة الى تحقق مطلق يستقطب بها ، أي بهذه الصورة فترتقي بهذا الاستقطاب من شخص « أي قناع » الى ذات .

ففي العامي « من عمي عن تجليات الوجود أو طمست عليه الفوارق » تنقلص هذه الفسحة حتى ليستغرق المعنى في الصورة استغراقا تاما فتتحكم الغرائز والعادات وتتناثر عندئذ الحياة الزاهية ويضمر الوجدان . واذا تخلل هذه الحياة الساجية بعض الاحلام المتقطعة فسرعان ما تسطو عليها العادة فتضيق عليها أفق العلم والعمل .

ولهبط العوام الى مستوى الحيوان لو لم ترفق العناية بهم فتنبغ البقرية فيهم لتنسج لهم قواعد فكرهم وعملهم فيعوضون بهذه القوقعة عن هيكلهم الصميم » .

وليس عبثا اذا اتجهت انظار الانسان الى السماء حيث تفيض الشمس بنورها فتغمر به الكون اذ انه ادرك بهذه الصورة قرارة نفسه ملقاة على الكون ، هذه القرارة التي ترتقي اليها النفس باستجمام تجلياتها فيتكشف بنيانها حينئذ متحلياً بهذا النور المتكيف

بالتسامي وكل درجة ارتقاء تمنح صاحبها أفقا متناسب المدى بالنفوذ .

ولئن كانت المعرفة الرحمانية مطلقاً تأثيرها في سلوكنا ، فالمعرفة الكونية تتحقق أيضاً بواسطة بنيان بدننا المجهز بمنظومات مدادية :

(Systémes de Rythme) متفاوتة التفرع ذات بنيان رحماني أصيل ، وبذلك يكمل الشبه بين الذكاء وبين صورته الحسية (ذكاء) التي تزيد من امكانيتنا العملية حتى اذا ماتمثلنا في الذهن هذا النظام الشمسي وحولنا بالخيال مافي هذا النظام من نسبي : Relatif الى رتيب Hierarchique ادركنا الوجود من الصميم

ان كلا من التجارب الرحمانية تتجلى في الوجدان برواء خاص بمرتبة رفعتها ، هذا من جهة و من جهة ثانية : انها تندرج مصورا ذا نظام تعبر فيه دقة المداد عن تلون رواء هذه التجربة بما يجعل النفس تلتزم في صعودها منحيين : منحي تبني به ماهية للوجود وفق المبادىء المشتركة بين العقل والمعقول ، بناء ذهنياً تزداد به مطابقة الذهن على موضوعه بصورة متناسبة مع دقة هذه الفسيفساء ؛ ومنحى آخر تنشيء به المفاهيم على شفق الآية بغية استجلاء غاية صبوتها أوضح فأوضح . والحقائق في الوجدان تتجاوب تجاوب الاضواء في الثريا حتى أن الوضوح الحاصل من

توافق الصورة ومعناها لتزيد في فسحة دائرة الانتباه ويساعد على ايجاد الصورة الاصلية والصورة بالمجاز بحيث تذكو نزعة المعرفة الى التحقق بالاستقطاب استقطاباً يتم به استجلاء الآية استقطاباً تتحول به المعرفة ايضاً الى عمل ذي جذور في الجملة العصبية العضلية .

واذ رمز اجدادنا بالقبة الى كل من مراحل تاريخ العالم ، بالقبة التي اقتبسوها من قبة السماء ، كانوا يعبرون بالمجاز بهذا عن وحدانية المرحلة التاريخية الثقافية وعن نظام قيمها نظاماً رتيباً وعن تلازم الاجيال فيها بالمسؤولية .

ان الوحدانية الثقافية التي تتجلى حقيقتها عقيدة عند زعيم المرحلة التاريخية هي منظومة أمدة ذات طابع بدئي وشريعة ذات امدود يتساند على تحقيقها لاحفاد والاجداد وانما شأن الزعيم في المرحلة التاريخية هو ان يجعل الاجيال في تساندها انشودة حية انشودة يستجم كل من الحانها في وحدانية تجليات المنظومة استجماما ينبعث منه معنى المرحلة التاريخية . واذن يصبح المعنى المنبثق من قرارة الامة كالبركان الذي يتدافع من قلب الارض فيشق بتصاعده الطبقات ليخرج ما كان ضامراً فيها وعندئذ تحمل الامة رسالة المرحلة التاريخية للعالم ، الرسالة التي يتجلى فيها معنى هذه المرحلة .

وها نحن نقتبس هنا بعض الآيات تبيانا للانسجام بين وجهة نظرنا ووجهة نظر امتنا : الوجهة التي تجلت بأسمى مظاهرها في القرآن :

١ – « وفي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (صدوع) والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج « البعث » » ، « ان في السموات والارض لآيات... وفي خلقكم وما يبث من دابة .. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » ، « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » ، » ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل

والنهار والفلك التي تجري في البحار بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » ، « جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » .

« وكأي من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، « أوحى في كل سماء أمرها » ، « وكل شيء عنده بمقدار » ، « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا » ، « الله الذي خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات » ... وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل والنهار ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون . وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل » .

« قد أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة أمن اله غير الله يأتيكم بضياء قل أرأيتم ان جعل الله عليكم والنهار سرمدا الى يوم القيامة أمن اله غير الله يأتيكم بالليل تسكنون

فيه » ، « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم جعلنا النطفة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ، « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث .. » ، « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » ، « فانظر الى رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون » ، « ومن آياته ان جعلكم من تراب ثم اذا انتم بشر منتشرون ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا تسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون » ، « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » ، « ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره » .

تتجلى الخليقة للناظر المتأمل على مثال القصيدة أو اللوحة الفنية ، كل من تجلياتها غاية بذاته ووسيلة في انسجام منظومة الكائنات العامة ان وحدة الطبيعة وما تضمنت هذه الوحدة من انسجام بين المظاهر وتوافق بين العناصر لتدل على باريها الاله مبدع الكائنات دلالة القصيدة على الفنان مبدعها بانسجام المعنى فيها مع العبارة .

٢ « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وما خلقناهما الا بالحق » . « اني جاعل في الارض خليفة » . « خلقنا الانسان في احسن تقويم » « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » « خلقناكم من نفس واحدة ثم جعلنا منها زوجها » ، « يا أيها الناس انا جعلناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ، « الدين عند الله الاسلام » [١] ، « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً » ، « الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ... وسع كرسيه

---

(١) قدم على النبي اسقف نجران والعاقب فعرض عليها الاسلام فقالا : انا كنا مسلمين قبلك . ولما نزلت « ومن يبتغ غير الاسلام دينا » الآية . قالت اليهود فنحن مسلمون ..

السموات والارض ولا يؤده حفظهما »، « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » « ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط »، « قد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » « النبي أولى بالمؤمنين من انفسهم »، « وما كان لمؤمن أو لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » ، « ووصينا الانسان بوالديه .. وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا »، « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء .. لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين

الغيظ والعافين عن الناس والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفر لذنوبهم... ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون » .

« فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله اذا تردى » ، « فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » ، « ومن يقترف حسنة نزد له فيهـــا حسنة ويمحو الله الباطل ويحق الحق » ، « نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون اتمم لنا نورنا » ، « ياأيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان » ، « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ، « لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم » .

« وممن أضل من اتبع هواه بغير هدى »... بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » ، « يمدهم في طغيانهم يعمهون » ، « ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » ، « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » .

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل

بقدر ما يشاء » ، « الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام ».

« وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلك القرى الا واهلها ظالمون » ، « ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . الله عليم بذات الصدور « ذلك لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون » ، « ومن يرد يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا » ، « وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها » ، « كذلك زينا لكل أمة عملهم » ، « ارأيت من اتخذ الهة هواه » ، « ونزعنا من كل امة شهيدا » .

« انه من قتل نفساً بغير نفس او فساداً في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً » .

« قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » « ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . . . لقد كان لسبأ في مسكنهم اية جنتان عن يمين وشمال . . . بلدة طيبة ورب غفور فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل .

ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه .. فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .
ولوطاً ان قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد
من العالمين أأنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في
ناديكم المنكر .. انا منزلون على هذه القرية رجزاً من السماء
بما كانوا يفسدون والى مدين اخاهم شعيباً فقال يا قوم .. لا تعثوا
في الارض مفسدين .. وعاد وثمود قد تبين لكم من مساكنهم .
زين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .
وقارون وفرعون وهامان فاستكبروا في الارض .. فكلا اخذنا
بذنبه .. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون وما
اهلكنا من قرية الا لها منذرون . لا يطيعوا امر المسرفين
الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون »

« ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى ... والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
قواماً ... والذين لا يقتلون النفس الا بالحق .. ولا يزنون ولا
يشهدون الزور » .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق
مثلها في البلاد » ... وثمود الذي جابوا الصخر بالواد وفرعون
ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب
عليهم ربك صوت عذاب ... والذين يجتنبون كبائر الاثم

والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون والذين امرهم شورى بينهم والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ... وانما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق . : ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » .

كأن الانسان بين الطبيعة والملأ الاعلى فاذا أقبل على صوت الرحمن المتجلي كواجب في الوجـــدان اهتدى الى الخيرات المستفيضة من عدل ورحمة ... وكلمة « رحمان » هي ورمزها « الرحم » يوحيان بهذا المعنى واما اذا هو اعرض عن الحق امسى في ظلمة من أمره وما ان تعمه النفس عن تمييز رواء القيم التي يتألف منها قوام الحياة حتى تعجز عما يتطلب أمر انشاء سمتها شخصية اصيلة من جهد ومن تضحية وكلمتا « شيطان » « وطاغوت » يشيران باشتقاقهما من « الشطط » و « الطغيان » الى زيغ النفس عن الحقيقة أو الى تغلب القيم الدنيئة على النبيلة .

٣) « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ، « لئلا يكون للناس على الله حجة » ، « والنفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من ذكاها وقد خاب من دساها » ، الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء

يؤتي أكلها كل حين باذن ربها . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار » .

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً » ، « وقال الشيطان ... ما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي » ، « فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما » .

« يابني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير » ، « لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، « احاطة به خطيئته » ، « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنياً أو فقيراً اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا أو تعرضوا وان الله كان بما تعملون خبيراً » . يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا هو اقرب للتقوى » ، « وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » ، « واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض » ، « والحسنات يذهبن السيئات » ، « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ان التوبة على

الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » . «وقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين »، «ماتنفقوا من خير فلانفسكم .. من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » .

٤ - بديع السموات والارض واذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » . « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة كانها كوكب دي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور » ، «ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » ، « اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً » ، « وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموت مطويات بيمينه »، « وله المثل الاعلى في السموات والارض » . « ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب وكذلك أوحينا اليك روحاً من امرنا » ، « لاتيأسو من روح الله » « قل انزله روح القدس من ربك بالحق .

« والوزن يومئذ الحق » ، « الله الذي يخرج الخبأ في السموات والأرض ويعلم ماتخفون وماتعلنون »، «ماأصابك من

حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك » ، « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره قبله العذاب » .

الاخلاق

او

فن ايجاد الحياة وابداعها

تخليدا لذكرى امى

وتمجيدا لعبقرية امتى

اهدي هذه الرسالة

قد جاءكم بصائر من ربكم فمن بصر فلنفسه ومن عمى فعليها .

فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني .

« القرآن »

قد اعطي لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله .

ملكوت الله داخلكم .

انا قلت انكم آلة .

« المسيح »

ان كتب الفلسفة - والمدرسية منها خاصة -- لم تفتأ تشير الى العلاقة بين العمل والمعرفة ، بين اخلاق الانسان ووجهة نظره في الكائنات ومع هذا ظلت العلاقة بينهما مبهمة غامضة غير ان العبقرية العربية تدل عليها بالكلمات دلالة واضحة ، حتى اذا ما بعثت الحدس التي تبلورت في الكلمات ذات الشأن بصائر في النفس ارتدى الذهن الى الحقيقة ذاتها وادركها بوجهتيها : المعنى والصورة .

وها نحن نسرد هنا بعض هذه الكلمات :

(١) كلمة «وجد» التي ينطوي حدسها على تلازم بين النزعة وغرضها كما يظهر جلياً في عبارة « وجد ضالته » بمعنى اهتدى اليها بعد البحث عنها .

تشير كلمة وجد بمصدريها الوجود ولوجدان الى ان الوجود هو رمز النزعة ، الرمز الذي تبلور كصورة وان لوجدان هو النزعة انكشفت لذاتها كمعرفة ، وتشير كلمة وجد بمصدريها الاخيرين : الوجد والجدة الى مدى التوافق بين الغرض والنزعة

« ١ » راجع كتابنا العقلية العربية في لسانها

بين الصورة والمعنى ، والجدة تكشف عن مدى هذا التوافق عمقاً في الصميم وبلاغة بالتعبير عنه .

وهل سها الذن العربي عن حالة التنافر بين وجهتي الحقيقة تلكما ؟ افلم يشتق كلمة موجدة ـ الغضب من مصدر وجد للتعبير عن هذه الحالة ؟

. . .

وكلمة « عقيدة » تدل بصورتها الحسية عقد الزهر الى الشبه بين انعقاد النفس على الحقيقة وبين انعقاد الحياة على الزهر او على الجنين في الرحم .

« يظهر على الخصوص تماس الحياة آنيا في علاقتها بالغذاء الذي تنشىء به بدنها رمز مصممها المتحقق بحسب مقتضيات العالم الخارجي اذ يتحول هذا الغذاء الى قدرة متبدلة ابداً بينما يواصل المصمم تفتحه في ذات الاتجاه تفتحاً يبدو في النفس ميلا يعبر عن وجهة نظرها »

« لئن بدا النوع ذا صفات متلازمة ومتممة فانه ينبثق عن الملا الاعلى وحدة حية تتجاوب فيها الغاية مع البداية تجاوب الالحان التي بها يتحقق الهام الانشودة . فينجلي بهذه الوحدة الاتصال بين الضمير (تحت الشعور) وبين لوجدان ، وتتوضح الميول التي تبدر قبل ان تدعو الحاجة الى استعمالها »

« الانسان والفكرة المنبعثة عنه كلاهما متماثلان تكويناً اذ ان الفكرة ايضاً تبدر مصمما منطويا على استعدادات خاصة ومبادىء عامة واذا حصل بهذه الاستعدادات اصطفاء الصور والخيالات المحققة لها فانما يتم بتلك المبادىء وتوجيهها فيتعين بذلك حدود سياها افلا تدل كلمة « بدن » بنشأتها اللغوية (بد بدد) النشأة التي تشترك فيها مع (بدا) و (بدر) و (بده) و (بدع) على ان البدن هو صورة حية تتحقق بتفرعها في الامتداد اي المكان وفي المدة اي الزمان ؟ انه لصورة تتجلى في الكون انظومة حية ، أوليست العبقرية ايضاً فكرة تفتحها متواصل مطلقاً ، تحقيقاً لما انعقدت عليه الحياة في صاحبها منذان استيقظ على الوجود ؟

الا ان الحياة تجيب على ثمر البدن بتفرع ميولها نزاً بينما العقيدة تتحقق باقبال النفس عليها ، تتحقق بالمعرفة الرحمانية التي تتحر بتسامها من تلازم الحوادث وحتى من قدر عدان الصور الذهنية تحرراً تستكمل به الانسانية نهجا في خلق ذاتها وفي اخضاع القدر لمشيئتها .

ان المعرفة الرحمانية وان كان انشاؤها يحصل من الاحساسات والذكريات فيمس الذهن بهذا الانشاء نظام العالم لكن النفس سرعان ما تنفتح بتجليها عن بنيان رحماني ذي صبوة الى

التسامي نحو مصدر الانبثاق . أفليس الحس والذكرى اللذان هما عنصر الخيال استجابة تجيب النفس بها على تحولات العالم وتحولات الدماغ المقتبسة عناصره من العالم ؟ واذا ما شفت الصورة التي هي نسيج المعرفة عن المعنى نجم الذكاء وميضاً يتناسب أجيجه مع ارتقاء الذهن في هذا المنحنى واذن ازداد الشبه وضوحاً بين ذكاء (الشمس) التي على ضوئها تتجاذب عناصر الطبيعة وبين الذكاء الذي يتألف على شفقه عناصر الخيال وسيلة انكشاف العقيدة في الوجدان .

ان المعرفة الرحمانية هي معرفة يتآحد فيها « انا » مع « الانام » الحس وحدّ تجليه المحسوس تآحداً يسقط به الحجاب بين المعرفة وغرضها ، الحقيقة ، بين الحياة ومأخذ قوتها : الطبيعية ، في هذه المعرفة تتخطى الهالة حدود الواقع ويتحول ما كان قد تمدد كما في المكان الى معنى انبثق في الوجدان . وكل افق تعتليه النفس بايجازها معالم الكائنات والآيات يزيد من رفعتها في اتجاه الملأ الأعلى ومن سطوتها على الطبيعة .

. . .

وكلمة « نية » تدل هي وصورتها الحسية « نواة » على قطبي الحياة : الانسانية والنبات دلالة نهتدي بها الى المناسبة بين ابسط

درجات الحياة تعضو أو ابعدها مدى في التكامل بين الحرية والعادة دلالة تهدي بها الى ادراك الصلة بين النية المكتسبة وبين الفطرة الموروثة بين الخلق والخلقة بحيث نستجلي امر ارتقاء الحياة من الطبيعة الى الملأ الأعلى .

واذا اشتقت العبقرية العربيه النية والنواة من نفس المصدر فقدر ادكت الشبه بين بدور النية في النفس وبين بدو الجنين في الرحم واذا هي ميزت بينهما بالاشتقاق فقد فطنت الى ان النية وحدانية ذات بنيان رحماني يتحقق كل من تجلياتها بالعلم والعمل وان النواة هي وحدة حية يتم نموها باستجابة البنية على مأخذ قوتها البيئة استجابة عفوية

تتميز البنية عن رمزها النواة بتلازم تحققها مع الهمة ، والهمة تبدو في النية كاخلاص اذ تنعقد النفس عليها وكنفوذ اذ يتوجه الذهن اليها وكفحة في البيان اذ يتم استجلاؤها بالعلم والعمل بالهمة ترتقي النفس من الرحمة ذات العلاقة ببنيان الاحياء الى العدل ذي العلاقة ببنيان المجتمع فالى الاصلاح الذي فيه يتجلى نظام المرحلة التاريخية . في الاصلاح تتحول اللمحات الملقاة رمزاً على الكون الى بصائر فتصبح النفس بهذا التحول منظومة حية .

عندما تنعقد النفس على النية تدرك منها الغاية والوسائل التي تؤدي اليها وتقدر ايضاً الجهد المطلوب لذلك . (اذا كانت النفوس كبارٌ تعبت في مرادها الاجساد – المتنبي) ان النية تتحقق باقبال النفس عليها اقبالا تصطفى به التجليات وتحوطها من حدث الى بصيرة من جهة ومن جهة شوق الى فعالية ذات جذور في بنية صاحب النية من جهة اخرى . وليس الشطط الذي رمز اليه الذهن العربي بكلمة شيطان الا نتيجة ارتخاء في الهمة ونفاد في قوى البدن . انه نتيجة غبش تعمه فيه النفس عن خيرها فتمس في ظلمة من امرها . واما اذا ارتسمت النوايا الساقطة على المحي أثارت رؤية طابعها الهجين مشاعر النفرة والبشاعة في نفوس الآخرين . وليس مذهب المسوخية عند الاقدمين اي مذهب تقمص الارواح في الاحياء الدنيئة الا الحدس بالشبه بين النية المنحرفة وبين خصائص احد الانواع الحيوانيـــة المختلف في تطوره عن غاية مبتغاه .

كذلك هي النية فاذا تميزت عن سمة الشجرة المنطوية عليها النواة فهي ، مع ذلك ، تنزع الى العادة نزعة تندمج بها في سجية صاحبها وتبقى منظومتها مطبوعة في بنيته . والنوايا المرتسمة سماتها على المحيى لا تكشف عن صبوة صاحبها فحسب بل انها لتشترك

في تعيين مصير مثلها كمثل الموج الذي تدل على شكله آثارة المحفورة في صخور الشط وان العادات المطبوعة في البنية لتدعو بمجاريها معناها الى العودة . وكلمة عادة نفسها تعني بحسب اشتقاقها النزعة الى العودة .

ولكن النفس تضل احياناً عن ادراك الفرق بين وحدانية كل من تجلياتها كمعنى من الصميم و كمنظومة من الخارج وبين وحدة الشيء المستعار قوام وحدانيته من البنيان العقلي فيلتبس عليها بنيانها ذو التجلي الرحماني بالاشياء وقد يفوت عليها تمييز البداهة من القناعة ، تمييز انبثاق الآية كمعرفة في الوجدان و كمصور نزاع الى التحقق بالعمل في المكان ، وبين القناعة (من قن ، كن) التي تحصل من تحليل الفكرة تحليلا يشف به قوام الشيء عن مبادىء يكن العقل عند ردها ولا سيما ان العقل ينشىء الآيات وللاشياء ماهيات Concept اطرها مقتبسة من المكان ، هذا فضلا عن ان النية تمس الضرورة عند قطبها تمسها اذا انحدرت نحو الصورة كمعرفة واذا انحدرت نحو العمل كعادة .

. . .

وكلمة (اخلاق) تدل باشتقاقها من خلق بمعنى أوجد وأبدع على العلاقة بين العمل والمعرفة وتكشف باتجاهات حدسها

(الخلق والخلق والخلقة) عن حقيقة الانسانية في مرحلتيها النزية والارادية ، الفطرة الموروثة والبنية المنشأة . ولما كان الايجاد تحقيق ما انطوت عليه الشخصية الانسانية من امكانيات وكان الابداع أبداع نوع انساني أكمل فأكمل اصبحت الاخلاق في الحدس العربي هي فن ايجاد الحياة وابداعها اي تحقيق الفطرة الموروثة ثم استئناف النمو أرقى فأرقى . ولما كانت كلمة (خلق) ذات ارومة مشتركة مع خار خبر أي هي والخير يرجعان بالنشأة اللغوية الى صوت خرير الماء الطبيعي فقد اصبحت علاقة الاخلاق بالخير المستفيض عن الملا الاعلى بمثابة استفاضة القوت (الخيرات المادية) عن رمزه الشمس . وحرف (ق) يفيد هنا معنى المقاومة التي يلقاها الانسان في انشاء خلقته أكمل فأكمل .

ولكن هل بقي المجتمع العربي عند حدس عبقريته ؟ام انحدر في تطوره نحو السبات ؟ افلم تكشف عن مدى هذا الانحدار كل من كلمتي اخلاق وفضيلة بانحدار معنييهما في العرف نحو التقليد والتقوى ؟

تحولت الاخلاق عن معناها الاصلي الذي هو الايجاد والابداع الى الخضوع للعرف والعادة وظهر في الفضيلة معنى التقوى على معنى الفيض الذي هو معنى نشأة الكلمة .

ان نشأة الابداع الميتافيزيكية ونهج تحققه لرحماني يجمعان بين الاخلاق والفن الا ان العمل الاخلاقي أبعد مدى في صميم

الوجود واكثر نفوذاً في نسيج القدر . والذهن العربي يشير باصول مسميها اللغوي الى الاختلاف والنسبة بينهما معاً ان هذا الذهن اذا اشتق كلمة «شعر» من «شعر» وهذه من «شع» بين ان الالهام في الفن استجابة تجيب بها النفس على اتصالها الرحماني مع الانام . والاتصال الرحماني هذا قد بدا الذهن العربي على مثال الاشعة . وان الالهام في انبثاقه عن الوجدان مشابه للشعر الذي ينبت من الجسد . وكلمة «شعر» باشتقاقها من ذات المصدر على انها صورة الشعور الحسية تلتزم النفس بما انبثق عنها من عقائد التزامها بما ينبت من جسدها من شعر .

غير ان الاخلاق تعني باشتقاقها من خلق انها تبتغي الحقيقة الانسانية المثلى . والنفس تحقق صبوتها هذه باستنادها الى امنيتها المستفاضة في الوجدان كصورة تعتلي عليها في صعودها نحو الملأ الاعلى .

ومع ذلك فان الفن يقشع عن الوجدان ، بما يبعث فيه من فيض من الشعور ، التقاليد البالية ، التقاليد التي تحجب عن النفس الحقيقة ولا سيما انه يحرر بالخيال الذهن من وطأة الطبيعة والمجتمع في مدهما من الآمال والاماني . اولا يشترك هو مع الفلسفة في سبر الاغوار الانسانية وفي التنبؤ بالمستقبل ؟ ومع هذا كله يبقى الابداع الفني اقرب الى الاساطير واشبه بالالعاب بينما الاخلاق تعوض على جهود صاحبها وتضحيته بالحرية ، بتجربة

مثلى تبدأ بها سيطرته على القدر، بتجربة مثلى يدرك بها مجملا ما كان قد تشتت من بنيان الحياة الرحماني رموزاً في البيئة . ان الحياة بالاخلاق ، لتحقق صبوتها : البطولة .

التجربة الرحمانية ذات نزعة ونزعتها هذه الى التحقق تزكو لدى اقبال النفس عليها ، اقبالا تتحول به التجربة الرحمانية من امنية ملقاة شبحاً في المستقبل الى آية ذات بيان . وبصدق هذا البيان تقتات النفس وتزداد نشوتها .

ولكن اذا وقفت التجربة الرحمانية في الفن عند ازدهار الحياة بالشعور فانها تتعاون في الاخلاق مع العناية على تعيين المصير وعلى تحقيق الخلقة الموروثة وحتى على ابداع الجسد عدانا أعمق فأعمق ، بحيث يستحيل الجسد نفسه الى منظومة بدائية بجمالها وباجزائها ، وهل الهالة تمتع بها الابطال غير رواء التجربة العميقة في صميم الحياة ؟ انما هي رواء تجربة تهتدي على هدايتها الاجيال في تحقيق مثلها العليا .

واذا كانت النفس تزهو في الفن حتى تصبح عبقرية ذات تصرف في شئونها ، اذا كانت في الابداع الفني تبعث بالماضي المحفوظ تراثاً لكي تنشىء منه الخيال الذي يحقق لها الشعور شعراً « الفن » فانها تنمي بالفضيلة عدان الحياة فتتخطى بهذا النمو حدود مصيرها . ان النفس تحول في العمل الاخلاقي الحدس من

لمحة الى بصيرة من جهة ومن معرفة الى فعالية ذات جذور في الجملة العصبية العضلية من جهة أخرى مما أوحى الى الذهن العربي الشبه بين النواة والنية » . فالنواة تتجه بجذرها نحو الارض بحيث تقتبس قوتها وبالازهار نحو الضوء بحيث تستمد اسباب انتعاشها. والنية كمعرفة تبقى تحت اشراق الذكاء وكعمل تتجه بجذورها نحو الجملة العصبية العضلية بحيث يتم لها استقطاب القدرة المخزونة في الجسد استقطاباً تندرج به في نسيج الحوادث "طبيعية

ان التجربة الرحمانية وان كانت هي والمعرفة الكونية يقومان على الحس والذكرى الا انها ذات قوام رتيب تتعين كل من مراتبها بمدى شوق النفس الى المثل الاعلى، بينما المعرفة الكونية هي مفهوم قوامه مقتبس من البنيان العقلي اذا هو لم يكن ذا بنيان مصطنع .

« اذا كانت الحياة قد افترقت بالابدان الى نفوس فهي قد سهلت بهذا الافتراق نموها بتجاوبها تجاوباً رحمانياً وتفتحها عن بيانها أعمق وأعمق وذلك بالاضافة الى تعاونها في اخضاع القدر لمشيئتها » .

وهل يقف الاختلاف بين المعرفة الكونية والمعرفة الرحمانية على الاختلاف بالعمق فحسب ؟ ام ان المعرفة الرحمانية تتضمن الدعوى الى القيام بما تقتضيه طبيعتها من عمل ؟ فاذا دعا سقوط

الحجرة في الماء الى التأمل بقانون السقوط فان سقوط الطفل يبعث في نفس المتفرج الهلع والمعنى المنبعث عن معرفة الخطر يبدو في الوجدان كواجب محتم . ان مثل المعرفة الرحمانية من عملها كمثل الشعور من بوادره في الهيجان . واذا قيل لايحجم عن الخير عارفه فقد بدا الاصلاح كرسالة تحققها أمر محتم في نفس من تجلت له حقيقة المرحلة التاريخية . والمجتمع من المصلح بمثابة المخيلة من العبقري . يكتشف المصلح صدق بيانه بما يلقى في نفوس الاخرين من صدى مستحسن مثله كمثل العبقري اذ يختبر صدق خياله بتوافق وانسجام الصور الا قيل للتعبير عن الالهام .

لقد ميزت المسيحية بين عهدين في تاريخ الانسانيـــة . بين عهد تمارس فيه الناس انسانيتهم عرفاً وبصورة مبهمة، وبين عهد تتفتح فيه النفس عن المعاني تفتحاً يتحول به العرف من حدس الى بصائر . وتمييزاً بينهما خصت هذه الديانة عهد العرف بالناموس والاخر بعهد روح القدس حتى لكأن العرف بحسب هذا التمييز يسبق الاية بالظهور ، والنفس ترتقي الى المثل الاعلى بفقه امنيتها الملفاة طيفاً في البيئة أى كأن الحقائق الانسانية من الانسان بمثابة الشمس من الارض . هذه تستقبل كوكبها شفقاً ثم فجراً ثم ضحى وتلك ترتقي نحو امنيتها بفقه الرموز التي تبلورت فيها معالم الامنية ، بتحويلها اياها من لمحات الى آية ذات بهاء، حتى اذا

ما تفتحت النفس عن التجربة الرحمانية بدا لها كل من درجات رفعة هذه التجربة مشاعر ذات رواء خاص بها ونظاماً أصيلا آخذاً بالدقة . واذا كانت هذه التجربة يتحول تلونها بالتسامي فان نظامها يندرج في بنية الجسد محولا عدانه الى منظومة مدة ذات طابع بدي. . وعلى هذا التحول يقوم التراث، بحيث يرث الابناء خلقة ما كان الاباء قد اكتسبوا خلقاً .

« فما يك من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم من قبل
« وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل »

ان مثل التحول في مداد العدان كمثل جرس مستحدث في نظام الانشودة حتى ان رواء التجربة الرحمانية ليكسو المفاهيم المتعارف عليها في اللغة بلون خاص بمرتبة الرفعة. وليست الخلقة الا حدود الخلق حدوداً مرتسمة في البيئة وأما الطبيعة وما أضيف اليها من مدينة وثقافة فانما هي حدود امكانية التجربة المثلى .

ولكن اذا كانت الحياة قد خضعت بتطورها الظروف البيئة وكانت الانواع الحيوانية قد ظهرت بين الفينة والفينة استجابة على انقلاب في الطبيعة أو على وضع اتخذته من الحوادث فانه يترتب الآن على الانسان وهو قد أصبح سيد البيئة أن يشرع في تنظيم البنية والظروف منسجمتين لكي يشترك مع العناية في خلق انسانية متكاملة واليك حدس أحد الاعراب في الجاهلية وهو

أبو كبير الهذلي في نهج اصطفاء المزايا الاخلاقية :

« . . . . . .

« بمن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل

« ومبرى، من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

« حملت به في ليلة مزودة كرها وعقد نطاقها لم يحلل

« فاتت به حوش الفؤاد مبطنا

سهداً اذا نام ليـــل الهوجل

ولما تتجسد الحقيقة الانسانية في البطل يصبح صاحبها ذاتاً واذاً تبدو في المجتمع كرسالة ، كمعرفة وعمل . اذ يحقق النبي رسالته يخلق نفسه . ان النفس من تجربتها المثلى كالأم من مهجة كبدها كلاهما ينمو بتجاوب رحماني بينه وبين مابدرعنه . واذا كانت الطفلة تمارس بالعابها الامومة طيفاً فان الجمهور ايضاً يرى في البطل امنيته متجسدة .

ولئن كانت الحياة تعني باصلها اللغوي الرسالة فن الاخلاق هي فن اداء هذه الرسالة ، ولئن كانت الحياة تدأب الى التسامي فانها تجعل تجربتها بمفهوم تجعل منه تذكاراً لمرتبة رفعتها . وليس الواجب «من وج ، أج» الا نزوع التجربة الرحمانية الى العمل . الا ان مفهوم الواجب من حيث هو متجه نحو الآية يبدو كحقيقة ماثلة في الوجدان ومن حيث هو متجه نحو العمل تندرج جذوره في الجملة العصبية اندراجا يصبح فيه تحت طائلة الارادة .

يتراوح الواجب بين الآية والعادة ، فان تسموبه النفس الى الآية بحيث يصبح المرء ربانيا فهي تنحدر بالتقوى نحو العبودية . وإذن يصبح الانسان كمن يقتات في المنام .

ليست الاخلاق نهياً عن السوء ولا أمراً بالتقوى بل انها منظة أعمال يستكمل بها الفرد شروط الحياة مرتقياً من شخص الى ذات ، ان الاعمال الاخلاقية من النفس بمثابة قواعد الصحة من الجسد على صدقها تقوم زكوة النفس قيام نشوة الحياة على صدق المعرفة في طبيعة الجسد .

ولما كانت الطبيعة تضيق عن المعنى وكانت الصور الذهنية تقصر عن الآية لجأت النفس الى الكون تلقي عليه امانيها مشخصة مثلها بذلك كمثلها اذ ترسم الجسد ذا الابعاد الثلاثة خيالا على السطح . واذا استلزم فهم الهندسة انبعاث البعد الثالث مجسماً في الخيال فان صحة المعرفة الرحمانية أيضاً تقوم على بدور الآية مستكملة شروط ماهيتها بالوجدان .

ان المعرفة الرحمانية كائنة بين الآية والعادة ، يتفاوت بعدها بالمدى عن احد قطبي انكشافها مما حمل الذهن على التعبير عن هذا التفاوت بحدس العمق . واذا التبس على النفس التداعي بالمشابهة مع اتجاهات الآية الاصيلة حتى طغت العادة على المعنى (المصمم) فان الامر يرجع الى هذا التفاوت . حتى لقد فات على الناس بسبب ذلك ، امر تمييز معرفة الاشياء من معرفة

الشؤون الانسانية، المعرفة الحاصلة من ارجاع الاغراض الى اوليات متعارف عليها من المعرفة التي تسطع من اعماق النفس وحدة حية . واذ قال أحد رسل المسيحية ان اليونان يسألون حكمة وأن الساميين يطلبون آية كان يشير بهذا القول إلى ذلكما الاتجاهين في المعرفة . والاختلاف بين هذين الاتجاهين يظهر في الاختلاف بين السنة وبين الحكمة الاخلاقية التي ينهج فيها العقل منهج العلم في دراسة الطبيعة .

إن الذهن يسلك آراء الشؤون الانسانية الممثلة فيه كصورة أحد مسلكين : فانه إما يساير هذه الصورة وعندئذ ينطبق عليه القول المأثور : (العنب يسود على رؤية بعضه بعضاً) اي القوى الخائرة تخضع لاراجيف البيئة الاجتماعية مذعنة لما فيها من فساد، وإما يحاول تقويم الاعوجاج على ضوء الآية جاعلا حياته وقفاً لاصلاح الآخرين .

يرجع الاختلاف على فهم الفضيلة بين العرب وبين الشعوب الهندية الاوروبية الى تطور الصورة الذهنية نحو احد قطبيها: الطبيعية او الملأ ، الشيء أو الحدس ، بل يرجع الى تفسير مبدأ الهوية . فمن يتخذ الماهية التي يبنيها العقل رمزاً ، فيدركها من وجهة نظر معينة كنظام رياضي يفوت عليه الفرق بين مراتب الموجودات فقد تجعل هذه المحاولة الطبيعة شفافة للذهن ، بحيث تزول وحشتها ، وقد تجعل مجرى الحوادث طوع الارادة، إلا أن

صاحب هذه لمحاولة يبقى عند ظل الحقيقة ، يطمس عليه ما هو بدي، في الكائنات . إن الحكمة تبقى على حدود النسبية ، على حدود العلاقة بين الموضوع والمحمول والامر هذا سواء في الحوادث الطبيعية وفي الشؤون الانسانية. وكلمة حكمة تفيد معنى المطابقة ، مطابقة الذهن للموجودات باشتقافها من حكم فمن حك مثلها كمثل الزنكوغراف من الاشياء .

إن وجهتي الحقيقة اذ يلتقيان عند غاية التحليل يكون التقاؤهما بمثابة التقاء المنحني بتماسه أي بعد أن يجوف لوجود من النزعة فيصبح خشارة relliculle ليس إلا .

غير أن الذهن العربي قد نهج في استقصاء الحقيقة الانسانية منهج الفن فاتخذ صورة قاعدة يرتقي عليها نحو الآية التي هي حكمة وجود الصورة نفسها . واما الارتقاء فيتم بفقه المعنى من خلال الصورة يتم باستجماع شروط ماهية الآية أكمل فأكمل ، بحيث تبدو له كل من مراتب هذا البنيان الرحماني عقيدة ونظاماً . وتشير الحكمة المأثورة: (ان من البيان لسحراً) الى تأثير المعرفة في تحقيق ما انطوت عليه الحياة من امكانيات . على ان تأثير المعرفة المباشر يقف عند حدود الشؤون الانسانية لا يتخطاها الى مملكة الطبيعة . واذا كانت المدنية التي هي مجموعة الرائل يرمز كل منها الى إحدى المعارف الانسانية ، تندمج في نظام الكون وتؤثر في سير حوادثه فذلك لأن الاوائل مقتبسة عناصرها من

الكون على مثال الجسد . وفي الحالتين يظهر شمول العلاقة بين المعرفة والعمل في حالة تأثير المعرفة المباشر على الايجاد والابداع وفي حالة تأثيرها بواسطة الآلة .

لقد ظهر في هذه الحضارة طابع المدنية على الثقافة وطابع السياسة والاقتصاد على الفن والاخلاق . هذا فضلا عن أن الفكر الحديث قد رافق تطوره مراحل اكتشاف الارض ، فحمل نهجه التحليلي طابع مسيره الكوني منحدراً بهذا الالتباس نحو سطح الحياة بحيث يبدو الابداع متردداً بين العلة والغاية ، تارة ملتبساً بالصورة التي تلازم الانبثاق ، وتارة ملتبساً بالغاية التي ينتج عنها عمل بديء في الاخلاق . مما جعل الانسان في الحالتين تلكما محصوراً بين الضرورة والانانية وبين ضرورة الايضاح الميكانيكي وأنانية الغاية ، ومع ذلك فاذا ظلت الشعوب الحديثة على مستوى من الاخلاق فانها تعوض عن الاصالة بالعلم والصناعة بما ينسج هذان من دعامة الحياة .

ولكن هل يقف تفسير الاخلاق بالمادية والانانية عند حدود التأمل ؟ أفليس الانسان ذا بيان رحماني تنزع فيه المعرفة الى العمل ! انما المرء حيث يضع نفسه و « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » .

فلئن اتخذ الذهن الحديث رائده مبدأ عدم التناقض ونهج منهج التحليل في الشؤون الانسانية فقد قصر عن غاية مبتغاه ، في

حين كان الذهن العربي يؤثر على مبدإ تمييز الحوادث بالمكان الوضوح الذي يحصل من بزوغ الآية في الوجدان .

ولئن تضمن حدث الصور التجاهي الصورة والصيرورة فانه دل على أن الوجود يختلف عن اطاره المكان وان المادة التي هي الغاية القصوي للامكانية التحليلية غير الصورة التي تحصل من تصالب المدة مع الامتداد، تصالباً تعوض به الحياة على التنوع في المكان رواء مراتب الموجودات في اتجاه العمق، الاتجاه الذي يعبر عنه بالزمن (المدة) .

والكلمات : اعتدال وعدل ، واقع وحق ، الخ يدل كلها على الصورة في صبوتها نحو المعنى الذي هو قوامها، مما يوحي بان الحدس في الاخلاق يسبق التجربة وان كانت التجربة تساعد على الكشف عنه كما تساعد على تعيين الخيرات اللازمة للمحافظة على كيان الجسد . وليس القبح الا الخلل في نظام الصورة ذات الصبوة ، يتحدد مداه بتخلف الواقع عن الحقيقة تخلفاً يعبر عنه بالقلق والحسة . مما يجعل من العسير امر التمييز بين مايعود من الخير على الفاضل مما يفيده الآخرون . ترسم النفس حدود خلقتها باعمالها فاذا هي اعرضت عن الخير التمت على ذاتها ففقدت نورها وبهاءها ، وأمست في حزن وظلمة .

إذن هل يبقى من مبرر للوهم الشائع بين الناس في ثنائية الطبيعة الانسانية في ثنائية المصلحة والواجب أو السعادة والفضيلة؟

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم الاستاذ

زكي الأرسوزي

في سلسلة

بعث الامة العربية

ورسالتها الى العالم العربي

الرسالة الاولى	المدنية والثقافة
« الثانية	اللغة والفن
« الثالثة	الفلسفة والاخلاق
« الرابعة	الدولة والامة والاسرة
« الخامسة	التربية وتنظيم الحياة العامة
« السادسة	العرب والانسانية

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0315333515

893.713
Ar99
v. 3

APR 2 2 1964

893.713 - Ar99 v. 3